

هو العليم

معنى التبّحّز وأهميّته في السّلوك

شرح دعاء أبي حمزة الثمالي - سنة ١٤٣٥ هـ - المحاضرة السادسة

محاضرة ألقاها

آية الله الحاج السيد محمد محسن الحسيني الطهراني

قدس الله سره



@MadrastAlwahy

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين

والصلوة والسلام على سيدنا ونبينا أبي القاسم محمد

وعلى آله الطيبين الطاهرين

واللعنة على أعدائهم أجمعين

«وَأَنَا يَا سَيِّدِي عَائِذٌ بِفَضْلِكَ هَارِبٌ مِنْكَ إِلَيْكَ مُتَنَجِّزٌ مَا وَعَدْتَ مِنَ الصَّفْحِ عَمَّنْ أَحْسَنَ
بَكَ ظَنَّاً»

يا مولاي وسيدي، لقد لجأت إلى فضلك، وفي فضلك ملجئي، وأنا هارب وها رع منك
إليك ونحوك، وأنا متنجز ومتيقن بما كنت قد وعدت به الأشخاص الذين لديهم حسن ظنّ بك
بأن تعفو عن ذنوبهم وتغضي عن أخطائهم، وأرى أنه وعد حقيقي وواقعي.

التنجز هو الوصول إلى مرتبة الواقعية والعينية

فالتنجز يعني الوصول إلى مرتبة الواقعية ومرتبة العينية؛ إذ إن التكاليف التي عينها الله
تعالى لعباده على مراتب، حيث لدينا مرتبة الملائكة، ومرتبة الإنسانية، ومرتبة الفعلية، والمرتبة
الأخيرة هي مرتبة التنجز، وإن كان بعضهم يقدم وبؤخر بين كل من الفعلية والتنجز. فالتنجز
يعني الوصول إلى مرتبة العينية التي يكون فيها الإنسان ملزماً بالقيام بذلك الفعل والثبات عليه،
أو التحرّز عنه إذا كان من النواهي؛ فمن باب المثال، السرقة حرام، لكن مادام الإنسان جالساً

في مكانه، ولم تحن له فرصة للسرقة بعد... كان بعضهم يقول: هل يمكن أن يتواجد الشيطان في حرم الأئمة؟ فقلت: لماذا لا يمكن أن يكون الشيطان هناك؟ فمن يقوم إذا بهذه السرقات التي تحصل في مقامات الأئمة؟ أفالجل جبرائيل هو من يفعلها؟ إن السرقة من فعل الشيطان! فكم سرقة حصلت في نفس حرم الإمام الرضا! وفي حرم الإمام موسى بن جعفر عليه السلام وضع سارق يده في جيبي، فالتفت إليه وقلت: اذهب، لا شأن لي بك، لكن لا تعد ثانيةً لمثل هذه الأفعال، واحجل من الإمام موسى بن جعفر عليه السلام! فمن المعلوم أن الشيطان موجود حتى في حرم موسى بن جعفر عليه السلام - وفي كل مكان له وجود -، وأنه لا يكفي عن مثل هذه الأمور هناك.

فأحياناً لا تكون السرقة منجزة على الإنسان - بمعنى أنه لا عينية لها ولا يوجد مجال لها -، كأن يكون الإنسان جالساً في منزله؛ ففي هذه الحالة، وإن كانت السرقة حراماً والغش في المعاملة حراماً والكذب حراماً، لكن لا وجود لأحد حتى يكذب عليه؛ فالإنسان لا يكذب على نفسه، بل لا بد من وجود شخص ثان حتى يمكنه أن يكذب عليه، أو من باب المثل: مع أن الغش في المعاملة حرام، إلا أن الإنسان يكون في هذه الحالة غير مبتلي بأية معاملة حتى يمكنه أن يغش فيها، لكن عندما يأتي إلى السوق، ويفتح باب دكانه أو مكتبه أو عيادته، ثم يواجه ذلك الموقف الذي يمكنه أن يغش أو يكذب أو يخون فيه؛ حينئذ يُقال بأن هذا الحكم قد تنجز عليه؛ أي أنه الآن فقط حصل على عينية، حيث يرى الإنسان فجأةً بأنه سيحصل على ربح إن كذب على الطرف المقابل، ف يأتي الشيطان ويقول له: يا عزيزي، اكذب، فهذه هي قواعد المعاملة! دع عنك كل ذلك الكلام [الذي يحرّم الكذب]، فالجميع يفعل ذلك، إلا أنت، ففي النهاية، سوف يعفو الله عنك بعد توبتك! هل التفتق؟ أو أن يقول له: اكذب الآن هذه الكذبة، فلا إشكال في ذلك، وارتكب هذه المعصية، فلا عيب في ذلك؛ وإنما لفمن جعل الله التوبة إذن؟ ولمن جعل عفوه؟ وهذا المسكين لا يعرف أنه بهذا العمل الذي يقوم به - إذا فرضنا أن الله تعالى سيعفو عنه لاحقاً - قد خسر رأسه إلا لا يمكن أن يعود إليه أبداً، فالذي حصل عليه هو العفو فقط؛ أي أنه إذا تُبّت، فإننا سنرفع عنك تلك العقوبة المترتبة عليك؛ نعم، على الإنسان أيضاً أن يتدارك

أخطاءه، لا أن يكذب على شخص آخر، ويكتفي بعد ذلك بالقول: لقد تبت الآن! لا، بل يجب أن يذهب إليه، ويقول له: لقد كذبت عليك! وإن كان قد اغتابه ووصل إليه ذلك، أو افترى عليه، وبلغه ذلك، فعليه أن يعتذر منه ويجبر فعلته، ويعلن أمام الناس: لقد افترت على هذا الشخص، واغتبته وكذبت عليه! فعندما يكون الإنسان يتحدث بالمعصية يكون مستأنساً جداً، وأماماً عندما يلتفت ويندم، فإنه يرغب في أن تبقى المسألة مخفيةً؛ هل هذا صحيح؟

هذا الذي يقال له تنجز! فالإمام السجّاد عليه السلام يخاطب الله تعالى قائلاً: إلهي! أنا في مقام التنجّز متيقّن بذلك الوعد الذي وعدت به، وذلك التكليف الذي وضعته أنت على نفسك - وقلت: سوف أفعل هذا الأمر وأقوم بذلك الفعل - ، لا أنّ هناك مسألة سوف تحصل يوم القيمة، فلننتظر لنر ما الذي سيحصل امثالاً لكلام قاله الله تعالى! فالإمام يقول: أنا الآن أعيش على أساس هذا الوعد الذي وعدت به، فحياتي قائمة على وعدك، وأنا أقضي اليوم من الصباح إلى المساء بما وعدتني من أنك ستعفو عنّي، وتصفح عن أخطائي، وأمضي أوّقاتي من الصباح إلى الظهر ومن الظهر إلى المساء ومن المساء إلى الصباح على أساس ذلك! وأنا أقضي أيامي بهذا الوعد الذي وعدت به من العفو والإغماض عن الذنب؛ فأصلّى على أساس هذا الوعد، وأصوم على أساسه، وأؤدّي عبادتي على هذا الأساس، وفي كل لحظة من اللحظات، أطبقّ هذا الوعد في مقام التنجّز على نفسي.

أهمية التنجّز في سلوك الإنسان

إنّ هذه المسألة هي من المسائل الجوهرية والحيوية في سلوك الإنسان؛ وهي أن يعيش الإنسان حالة التنجّز واليقين بالنسبة لطريقه، فلا فائدة في أن يقول: لنذهب ونر ماذا يجري هناك! أو أن يقول: فلنأت إلى هنا أيضاً، فقد ذهبنا إلى أماكن أخرى، وحضرنا هيئات ومساجد وتكايا أخرى، واستمعنا إلى خطباء آخرين، ورأينا أشخاص مختلفين - فالتقينا بالشخص الفلاني وقرأنا كتاب المؤلّف العلّاني ومقالاته - ، فلنأت إلى هنا أيضاً، ونر ماذا هناك! ويقول: حسناً، الظاهر أنّ هذا المكان لا بأس به، إذ يتحدث فيه عن بعض الأمور الجيّدة.. إنّ كلّ هذا لا فائدة

فيه، نعم، هو جيد بعنوان كونه مقدمة، لا أن يكون بشكل مستمر و دائم، وإلا بقي الإنسان إلى آخر عمره في حالة "لنر ماذا سيحصل"!

كان المرحوم العلامة يؤكّد كثيراً، ويكرّر تأكيده، ويؤكّد علينا بأن لا تتعجلوا في قبول الأشخاص، ولا تسرعوا في دعوة الناس، ولا تدعوا أياً كان إلى هذه المائدة؛ فصحيح أنّ هذه المائدة ممدودة، لكن ينبغي أن يشعر الشخص بالجوع! فما لم يكن الإنسان جائعاً، لا يمكنه الجلوس إلى هذه المائدة، وإلا لجلس وبقي ينظر: هل آكل من هذا الصنف أم من ذاك، وهل هذا الطعام جيد بالنسبة لي أم ذاك؟ وأمّا الجائع، فعندما يُدعى إلى الطعام، لا ينظر إلى أيّ الطعام هو جيد بالنسبة إليه. وإنّ هذه المطالب التي أذكرها للإخوة هي عبارة عن التجربة الشخصية للحقير مع المرحوم العلامة وأساتذته، حيث كان يتعامل مع أساتذته بهذا النحو، وكان حالة كحال من عاش حالة قحط لمدة سبع سنوات، ومثل أولئك الذين يُضربون عن الطعام، فيبقون جائعين لمدة عشرة أيام أو عشرين يوماً، فيضعفون ويضعفون إلى أن يأتوا ويجلسوا على مائدة؛ فكيف ستكون حالتهم النفسية بالنسبة إلى أكل هذا الطعام؟ فهذا أعظم من الجوع وأشدّ منه بمراتب.

وهذه المسألة يشعر بها الإنسان بوضوح عند العطش، ولا بدّ أنه حصل لكلّ شخص أن وصل في فترة من الزمن إلى ما هو أشدّ من العطش، وقد حصلت بالنسبة إلىي، حيث وصلت إلى مرحلة تجاوزت فيها حالة العطش، ووصلت إلى حالة من التعب والانهيار من شدة العطش، ونسّيت مسألة العطش كليّاً؛ ففي هذه الحالة، عندما يصل الإنسان إلى الماء، كأنّه قد وصل إلى منبع الحياة. لقد كانت لدى المرحوم العلامة في علاقته بالعظاء وسماع حديثهم وكلامهم مثل هذه الحالة، فقد كنت أحياناً أذهب وأحضر نفسي في بعض أموره الخاصة - ولا يخفى أنّي كنت في ذلك الزمن أشاغب كما هو الحال دائمًا، وكانت أكثر شغباً من الآن - لأرى ماذا هناك، وما هي الأمور التي تحصل معه، فكنت ألاحظ أن توجّهه إلى أساتذته هو بنحوٍ بحيث لو حصل إلى جانبه شيء، لم يكن يتلفت إليه!

السالك المتتجّز هو الذي يشعر بنتيجة سلوكه في كل لحظة

هذا هو الذي يقال له إنسان يسعى للحصول على الحقيقة والوصول إلى الهدف! هذا هو المتنجّز! فالمنتنجّز هو المصدق، وهو الذي يحيا على أساس التصديق، ولا يكتفي بأن يعد نفسه، كما نفعل نحن الذين نعد أنفسنا، حينما يُقال لنا: كذا، فنقول: لا بدّ أنّ ما يقولونه صحيح! ويقولون: كذا، فنقول: لا بدّ أن يكون هناك شيء من هذا القبيل، فلنذهب، ولنرّ ماذا سيحصل! كلاً يا عزيزي، إنّ نفس مجئك إلى هذا المكان وتواجدك بهذه المدرسة ومسيرك في هذه الطريقة وإحساسك بهذه الحقيقة والواقعية هو التنجّز الذي ينبغي عليك أن تتيقّن به.. هذا هو ذلك.

خدايا زاهد از تو حور می خواهد قصورش بین *** به جنت می گریزد از درت یا

رب شعورش بین

(انظر يا رب إلى قصور الزاهد حين يطلب منك الحور (و يطلب منك سواك)، و تطّلع إلى شعوره حين يهرب من بابك إلى جنتك!)¹

فذلك الزاهد يصلي لكي يحصل يوم القيمة على الحور، لكن ماذا عن الآن؟ لا شيء! فهو الآن يصلّي: الله أكبر، بسم الله الرحمن الرحيم... ولا الضالّين.. سبحان رب العظيم...، فلماذا نحن نصلّي؟ لكي نحصل على الحورية فيما بعد، وإن لم يعطوا الحور، سوف يعطون الثور؛ ففي نهاية الأمر، سوف يعطون شيئاً ما!!! انتبهوا، فما أقوله لكم، قد سمعته واقعاً!

ففي أحد الأيام، ذهبت عند أحد العلماء - وقد مات فعلاً وانتقل إلى رحمة الله، وكان مرجع تقليد ورجلًا جيدًا - فدار الكلام حول الصلاة، فقلت له: يا سيدي، بأية نية تؤدون الصلاة؟ فقال: لقد وعد الله بالجنة والحور العين، ووعد بكلّ هذه النعم في الجنة؛ فنحن نصلّي لأجل ذلك، وإلا فلماذا نصلّي؟! لقد كان يبلغ التسعين من العمر، ومع ذلك نراه يقول: أنا أصلّي للحصول على الحور التي سيمنحونها لنا بعد الموت! لكن ماذا عن الآن؟! لا شيء! ما الذي تستفيده الآن من الصلاة؟ وما الذي تحصل عليه من القرآن الآن؟ وما الذي تناله من الصوم

¹ راجع: معرفة المعاد، ج ١٠، ص ٥٦. المترجم

الآن؟ فنحن نصوم حتى نحصل على برّتقال يوم القيمة؛ فبرّتقال الجنة بهذا المقدار.. بمقدار البطيخ! لكن من الجيد أن تكون الأغصان صلبة حتى لا تنكسر، فتقع البرّتقالة على رأس الإنسان! وأمّا البطيخة، فلا بدّ أن تكون هناك بوزن طنّ!

ونحن نقرأ القرآن لكي نحصل على الثواب في ذلك العالم؛ مثلما ورد في الروايات أنّ الإنسان تنبت له شجرة على كلّ آية قرأتها، وأنّ له شجرة في الجنة على كلّ (لا إله إلا الله) يقولها وأمثال ذلك. إنّ هذه الشجرة تنمو الآن في وجود الإنسان، لا أنها ستنمو في يوم القيمة، ونحن غافلون عن هذه المسألة! حسناً، إتنا نصلي لأنّ الله أمرنا بذلك، ولاّته وعدنا بالحور والغلام والنعم.

هل هذا هو الصحيح، أم ما يقوله العظاء - ولا يخفى أنه لدينا روايات بهذا المضمون - عندما يذكرون بأنّه عليك حينما تقرأ القرآن أن تصوّر بأنّ قارئ القرآن [وملقي القرآن] هو أنت؛ بمعنى أنّ هذه الآيات قد دخلت واستقرّت في وجودك وأنت تتلوها من وجودك وذاتك! أي أن تجعل من نفسك أنت القارئ، والمستمع شخصاً آخر.. هذا هو معنى قراءة القرآن؛ مثلما كان القرآن ينزل على النبيّ، وكان النبيّ يقرأ هذه الآيات بعد أن انتقدت في نفسه وتكوّنت حقيقتها في وجوده، لا فقط هذه الألفاظ: (صاد وضاد وطاء وdal وذال ولام وعين)، لا، بل حقيقة هذه الآيات واقعية، وذلك العالم الذي تحكي عنه هذه الآيات، وتلك المفاهيم التي تترسّح عنها هذه الآيات! فالألفاظ تحكي عن هذه المفاهيم المغروسة في وجود النبيّ صلّى الله عليه وآلّه وسلّم الذي يأتي بعد ذلك ويلقيها على الناس بواسطة هذه الألفاظ؛ هل هذا واضح؟ فما الذي يتصوره الناس؟ يتصور الناس بأنّ النبيّ قد جاء وقرأ علينا هذه الآيات وحفظناها، وبما أنّ النبيّ قالها لنا، فنحن نقرأها! لا، بل يجب على الناس أن يحضروا هذه المعاني الموجودة في وجود النبيّ - والتي ألقاها بهذه الألفاظ فدوّنوها على جلود الحيوانات وعلى الأوراق وغيرها - ، وأن يحفظوها في وجودهم، ويثبتوها في نفوسهم، ثمّ يعيدوا قراءتها من وجودهم عند الصلاة أو عند قراءة القرآن؛ فهذا يعني ذلك؟ يعني أنّ القرآن قد نزل عليك أنت، ونزل على كلّ فرد منكم، والنبيّ عبارة عن مرآة فقط؛ لأنّنا بحاجة إلى مرآة في الوسط، وبحاجة

إلى واسطة، فالله لا يأني ويوحى إلى كلّ فرد فرد؛ لأنّ الوحي بحاجة إلى عدّة أمور يا عزيزي! فهو بحاجة إلى الذهاب إلى غار حراء، فمن يأثرى قد ذهب منا إلى غار حراء؟ لو مشينا خطوتين فقط، لقلنا: آخ، رجي تؤلمني! ولعدنا إلى المنزل، وأمّا النبيّ، فكان يُقيم في غار حراء أربعين يوماً بعد الأخرى! إنّ الوحي يستتبعه العمل، ويستتبعه البرد، وبحاجة إلى إحياء الليلي حتى الصباح، وبحاجة إلى عزلة ومجاهدة ومراقبة، وبحاجة إلى ألف مسألة أخرى.

حسناً، فالله أعفانا من جميع ذلك، وقال لنا: اجلسوا في منازلكم، فقد اصطعننا ذاك الذي ينبغي عليه أن يقوم بكلّ هذه الأمور! وقد أعددنا النبيّ والأئمّة لمثل هذه الأمور؛ فهم مكلّفون بحمل أثقالكم، وإيصالكم إلى المقصود! فهذا النبيّ يتولّ في الأمر، فيتلقّى هذه المطالب، ثم يُلقّيها علينا بعد ذلك. وأسائلكم بحقّ: كم هو مقدار استفادة الذين يقرؤون القرآن بهذه الطريقة من دون الالتفات إلى معانيه أبداً، وغاية جهدهم أن يمتنوا على الله تعالى بسبب الثواب الذي وعد به الله سبحانه وهذه الأمور؟ وما هو حظّهم من قراءة القرآن؟! هل إنّ الإمام الصادق عليه السلام عندما قال: «لا زلت أردد: (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينَ)»، إلى أن رأيت وسمعت أنّ هذه الكلمات تصدر من تلك الذات التي أقول لها: (إِيَّاكَ نَعْبُدُ)، وأنا الآن أسمع ذلك!^١ كان يقرأ بهذه الطريقة؟! وهل كان يقرأ بنية الحصول على الحور العين يوم القيمة؟! أي هل كان يقول: نصلي لكي نحصل على الحور العين يوم القيمة؟ ولا بدّ أن الحور للرجال، وأمّا النساء، فلهم الغلمان.. وهناك أيضاً برتقان ولبن وحليب في يوم القيمة، وأمثال ذلك!

يعني هل كان الأئمّة يصلّون في الحقيقة بهذا الشكل؟! فهذا مضحك جدّاً! وهل إنّ هذا الارتباط - الذي كان هؤلاء العظماء يجرونه مع الله عند الصلاة وعند قراءة القرآن - له جهة صوريّة فقط؟ وهل هو لأجل الوعد الذي سوف يتحقق لاحقاً؟ أم أنّ هذا الارتباط بنفسه يعني لقاء الله! لقد كان الإمام الصادق يشعر بقاء الله في نفس تلك اللحظة، وكان النبيّ يشعر بقاء

^١ يقول السيد ابن طاووس رحمة الله في كتاب «فلاح السائل»: **فَقَدْ رُوِيَ أَنَّ مُولَّاً جَعْفَرَ بْنَ مُحَمَّدِ الصَّادِقَ [عَلَيْهِ السَّلَامُ] كَانَ يَتَلَوُ الْقُرْآنَ فِي صَلَاتِهِ، فَغَشِّيَ عَلَيْهِ، فَلَمَّا أَفَاقَ سُئِلَ: مَا الَّذِي أُوْجِبَ مَا اتَّهَنَ حَالُكَ إِلَيْهِ؟ فَقَالَ مَا مَعْنَاهُ: مَا زِلْتُ أَكَرُّ آيَاتِ الْقُرْآنَ حَتَّى بَلَغْتُ إِلَى حَالٍ كَانَنِي سَمِعْتُ مُشَافَّهَةً مِنْ أَنْزَلَهَا، عَلَى الْمُكَاشَفَةِ وَالْعِيَانِ، فَلَمْ تَقْمِ الْقُوَّةُ الْبَشِّرِيَّةُ بِمُكَاشَفَةِ الْجَلَالَةِ الإلهيَّةِ** (معرفة الله، ج ١، ص ٣٠٦). المترجم

الله في نفس تلك اللحظة التي يقول فيها: أرحي يا بلال، وكان يشعر بحالة اللقاء بالله في ذلك الوقت.

حكاية عن المرحوم دستغيب في بيان تجذّر لقاء الله تعالى

رحم الله المرحوم دستغيب، لقد كان رجلاً عظيماً جداً، ومستقيماً وزاهداً، وخلالاً من الأهواه، وقد كان من الأصدقاء الحميمين للمرحوم العلامة، وكان يحبه كثيراً! ففي السفر الذي تشرفنا فيه بالذهب إلى كربلاء بعد عودتنا من مكة - وقد ذكر تفصيله المرحوم العلامة في كتاب الروح المجرد -، كان السيد دستغيب قد ابتدى في ذلك الوقت بمصيبة فقد أحد أولاده، وقد قال بعضهم بأنه أثير حول سبب موته بعض الشكوك، حيث كان ذلك في زمن الشاه.. فأقى إلى كربلاء، وعلم المرحوم العلامة بمجيئه، فقال السيد الحداد: لنذهب لكـي نعزـيزـه! فذهبنا إلى منزل كان قد استأجره، وهو مؤلف من ثلاث غرف، وقد كان مجلساً عجـيـباً جداً.

ومن ضمن الكلام الذي ذكره أنه قال: كـنـا يـوـمـاً في محـضـرـ المرـحـومـ الـأـنـصـارـيـ... حيث كان [المرحوم دستغيب] مقيماً في Shiraz، فكان يأتي من هناك إلى همدان ويبيقى فيها بضعة أيام، وكان يأتي برفقة المرحوم الحاج صدر الدين الحائر رحمة الله، وكان يأتي أيضاً المرحوم الشيخ حسن نجابت، حيث أن بعض الأصدقاء كانوا من Shiraz، وكانوا يأتون عادة كل شهرين أو ثلاثة أشهر إلى همدان.

قال: في إحدى المرات التي أتينا فيها إلى همدان، ذهبنا إليه وكـنـا في حالة اـنـشـرـاحـ وـسـرـورـ، والحاصل أنـنا لم نـكـنـ نـشـعـرـ هل أـنـناـ فيـ الـأـرـضـ أـمـ فيـ السـمـاءـ، وـلـمـ نـكـنـ نـشـعـرـ بـأـنـفـسـنـاـ أـصـلـاـ، حيث كـنـاـ فيـ حـالـةـ نـشـاطـ عـارـمـ! وـعـنـدـمـاـ أـرـدـنـاـ أـنـ نـصـلـيـ صـلـاـةـ الـظـهـرـ، حـصـلـ لـدـيـنـاـ فـجـأـةـ خـطـوـرـ مـفـادـهـ: متـىـ يـحـصـلـ لـنـاـ لـقـاءـ اللهـ؟ فـمـاـ فـتـئـنـاـ نـرـدـدـ عـبـارـةـ «ـلـقـاءـ اللهـ.. لـقـاءـ اللهـ»ـ، وـمـاـ فـتـئـنـاـ نـرـدـدـ عـلـىـ هـذـاـ المـكـانـ، فـلـمـاـ لـخـبـرـ لـنـاـ عـنـ لـقـاءـ اللهـ نـحـنـ الـذـيـنـ أـتـيـنـاـ بـأـجـمـعـنـاـ إـلـىـ هـنـاـ؟ـ!

قال: وفي ذلك الحين ارتفع الصوت بالتكبير، وشرع المرحوم الأنصاري بالصلوة - والظاهر أنـهمـ كانواـ فيـ الـمـسـجـدـ؛ لأنـ الـمـرـحـومـ الـأـنـصـارـيـ كانـ يـصـلـيـ فيـ الـمـسـجـدـ، وقد حـصـلـتـ

هذه القضية في الظهر سواء كان ذلك في المنزل أم في المسجد، لكن من المقطوع به أنها كانت صلاة الظهر -، وعندما بدأنا بالصلاحة، اعتبرنا حالة عجيبة جدًا فاقت جميع تلك الحالات التي حصلت لنا قبل ذلك وكنا نظن فيها بأننا نشعر بالسعادة، إذ حصلت لنا حالة ونشاط عجيين، فلم نعد نشعر متى ركعنا، ومتى سجدنا، وكنا نقتصر على متابعة المرحوم الأنصارى في فعله من دون الإحساس بالوضعية التي كنا فيها! وحينما انتهت صلاة الظهر، وانتهى المرحوم الأنصارى من التسبيح، نظر إلى وقال: هل فهمت الآن مسألة لقاء الله؟ وهل أدركت الآن مسألة لقاء الله تعالى في الصلاة؟

نحن نتصور بأنّ الحضور في هذا الطريق والثبات عليه هو عبارة عن عمل تكراري يهدف للوصول إلى مرتبة أخرى وحالة أخرى، والحال أنّه في كلّ موقف وكلّ لحظة حصل فيها تجديدٌ فكريٌ لنا، فإنّ ذلك يُعدّ بنفسه لقاءً وخطوة نحو الأمام بالنسبة إلينا! فكلّ رؤية جديدة وبصيرة جديدة وفكرة جديدة يحصل لنا فيها يختص مختلف المسائل الاجتماعية والسياسية والدينية والفقهية والأخلاقية والعقائدية هو عبارة عن خطوة في اتجاه لقاء الله؛ فما الذي يعنيه لقاء الله تعالى؟ إنّ لقاء الله يعني تثبيت الحق (ذلك بأنَّ اللهُ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ)^١.

عجب جدًا! فالله هو الحق، ومتى ما وقفت أمام خيارين: إما أن تقول الصدق أو تكذب، وصدقت، فإنَّ الله موجود هناك، وليس أنت. وأما إذا كذبت، فإنَّ الشيطان هو الموجود هناك.. (وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ): لماذا تكذب؟ لوجود جهة (هو الباطل)؛ فـ (يدعون) ليست بمعنى الدعاء والطلب، بل بمعنى الوجهة والتركيز والتوجّه والاعتماد؛ فذاك الذي يدعونا نحو الكذب هو الباطل، وأما الذي يدعونا نحو قول الصدق - والحال أنَّ الصدق خلاف لمصلحتنا الدنيوية، ومع ذلك نقول: نحن نقول الحق ولو كان في غير مصلحتنا - فما هو؟ هو الله؛ (ذلك بأنَّ اللهُ هُوَ الْحَقُّ)، فالله حاضر هناك؛ وعليه، فإنَّ نفس اختيارك لهذا الطريق من بين هذين الطريقين أمامك يعني لقاء الله، وهو لقاء الله تعالى بهذا المستوى؛

^١ سورة الحج، الآية ٦٢.

وقد يكون عندنا لقاءً في قضية أخرى ومسألة أخرى، بل في كلّ موقف كان لديك فيه قدم صدق ونية صدق وهدف صدق؛ فذلك الموقف يعني: **(إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ)**، فالله هو الحقّ يعني أنه حلّ في كيانك، وبما أنه حلّ في كيانك، فأنت تقول الحقّ، فتكتشف بأنّ هذا الصدق هو بسبب ماذا؟ **(ذلِكَ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ)**، أي أنّ الحقّ قد أتى إلى هنا. وأمّا إذا حلّ الشيطان، فإنّك ستكتذب؛ يعني إذا كذبت، فإنّ الشيطان قد أتى؛ وبذلك تكتشف بأنّ هذا الكلام قائم على أساس عدم حضور الله، وعدم الحقّ، ومن باب **(وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ)**؛ فالباطل قد حلّ في هذا المكان.

حسناً، فهذا يُعدّ معياراً من المعايير، والإنسان يمكنه ذلك.. تفضل على بركة الله! ويمكنه أن يتحرّك ويتقدّم، ويمكنه أن يشاهد لقاء الله لحظة بلحظة؛ وكم هو جميل عندما يتمكّن الإنسان من عبور جسر، والخروج من امتحان، فيرى كم كان ذلك جميلاً ولذيداً، وكم هي المنافع المترتبة على ذلك! فهذه المسألة هي التي تعني لقاء الله.

لقد كان الشيخ الأنصاري يريد أن يقول للمرحوم دستغيب: ما معنى أنّك تبحث عن لقاء الله؟ ففي كلّ آن تتوارد فيك هنا، يحصل لك لقاء الله! حسناً، تعال لأريك ذلك في الصلاة، إلى درجة أنّك لن تعلم متى ركعت ومتى سجّدت، وفي أيّ حال ووضع كنت! حسناً، لقد شاهدت هذا الأمر بنفسك!

معنى تجّز وعد الله تعالى في الصفح عن المستغرين

في أحد الأيام، كنت مع مجموعة من الأشخاص في مكان ما مع المرحوم العلامة - طبعاً كلّنا مبتلى بالنقص والعيوب والضعف -، فنظر أحد الرفقاء - وهو من رفقاء ذلك الزمان ولايزال الآن على قيد الحياة - إلى المرحوم العلامة - ولم نعرف لماذا فعل ذلك - وقال: يا سيدى، ما هو الحال؟ ما هو حاصل كلّ هذه المساعي التي بذلناها هنا؟! فنظر إليه العلامة... ماذا يقول له؟ قال له: سمعاً وطاعة!!! حسناً، ما هو سبب ذلك؟ فلا داعي للقول «ما هو الحال؟» من الأساس! فأنت عندما تكون هنا، لا داعي لقولك «ما هو الحال؟»، وإنّما إذا لست في مكان

آخر الآن؟! فيكفي أنك موجود هنا ولست في مكان آخر، والحال أنه يمكنك أن تكون في مكان آخر، ويمكنك أن تفعل أموراً أخرى، ولكن بسبب وجودك هنا لا تفعل ولا يمكنك أن تفعل ذلك، ولأجل أنك هنا، لا يتمكّن فكرك ونفسك وفطرتك ووجودك من الإقدام على ذلك؛ فصرت تأخذ القرار الصحيح في مختلف مسائل الحياة الاجتماعية وغيرها. عليه، ما الذي يعنيه قوله «ما هو الحال؟»؟

إن هذه المسألة تعني حقيقة الحضور، وذلك التنجّز الذي يقول عنه الإمام السجّاد عليه السلام: أنا متيقّن في وجودي من ذاك الوعد الذي وعدتني به؛ يعني أنا أشعر به.. متنجّزٌ ما وَعَدْتَ مِنَ الصَّفْحِ عَمَّنْ أَحْسَنَ بِكَ ظَنًا، أي أنا مصدق بأنك تغمض عن ذنبي وتغضي عنها، وأنا أفهم ذلك وأشعر به؛ ألا ترون أحياناً أن الإنسان قد يرتكب ذنباً وتحصل له كدورة، لكنه حينما ينهض للصلوة يرى أن تلك الحالة قد زالت عنه، واستبدلت بحالة من الخفة؟! هذا هو المراد من ذلك! يعني أن الله قد أغمض عنه، ولو لم يغمض الله عنه، لبقي على ذلك الحال؛ وهذا ما يحصل كثيراً للإنسان، وذلك بأن تُصيّبه حالة من الكدورة، ثمّ بعد ساعة يحصل له شيء معين، أو يتداخّل عنصر آخر؛ كأن يسمع القرآن مثلاً أو يحصل له توجّه خاصّ، فيلحظ أن تلك الحالة قد ارتفعت! عجباً! عند ذلك، نجد أن ذلك الإنسان يتّنفر كثيراً من تلك الحالة، فلا يريد لها أن تعود أبداً، ولا يريد أن يعيذ ذلك الكلام الذي صدر منه، أو إذا صدر منه، يريد أن يصحّحه! فما هو سبب حصول هذه الحالة النورانية؟ "الصفح عَمَّنْ أَحْسَنَ بِكَ ظَنًا"؛ أي أن الله تعالى قد ستر عليه، فذهبت تلك الحالة، وعادت له حاليه السابقة، وصارت لدى نفسه حالة من البهاء والبهجة، لكن يبقى أن هذا المقام هو مقام حال لا مقام استقرار، بمعنى أنه ينبغي العمل على تكراره بشكل مستمر إلى أن يصل إلى مرحلة الاستقرار، ويجب على الإنسان أن يُمرّن نفسه ويداوم على المراقبة لكيلا يعود لنفس الخطأ.

ألا ترون أحياناً أن الإنسان قد يتكلّم بكلام، فيتکدّر منه شخص آخر؟ وفي هذه الحالة، نجد أن ذلك المتكلّم قد حصل له انقباض بسبب ذلك؛ لا تتكلّم من أول الأمر يا عزيزي! أفال أنك ملائكة؟! وهل الإنسان مجرّد على أن يقول كل شيء؟! على الإنسان أن يُبقي

ألف كلمة في داخله، ويتكلّم بكلمة واحدة فقط! ثمّ بعد ذلك، نرى أنّ ذلك المتكلّم قد ذهب واعتذر منه، فيحسّ بآن ذلك الانقضاض قد ارتفع؛ فما هو سبب ذلك؟ سببه أنّ الحالة الأولى قد ذهبت، وأتت حالة جديدة؛ وهي حالة نورانية، وحالة رحمة تأتي وتحلّ مكان تلك.

هذه الحالة يُقال لها حالة التنجّز؛ يقول الإمام السجّاد عليه السلام: أنا أعيش بحالة التنجّز، وأنا بالتنجّز أكل وأمشي؛ أي أنّي أشعر كيف أنّك تضع أخطائي جانباً، وأحسّ بذلك في وجودي، فأرى بآن لا وجود لكدورة الذنب في داخلي، وبآن رحمتك أتت وحلّت مكانها، وأعلم بآنك سترت الخطأ الذي ارتكبته، وبآن ذلك الخطأ قد ذهب بتوّجه واحد مني فقط كنت أنت الذي وفّقني إليه؛ فإذاً من المعلوم أنّي متنجّز، ومصدق، وهذا الإحساس والتصديق واليقين هو الذي يدفعني إلى الأمام، وأمّا إذا افتقدت ذلك... إذ يوجد بعض الأشخاص كذلك، فيأتون إلينا ويقولون: سيّدنا، لقد ارتكبنا هذا الذنب، فهل يعقل أن يغفر الله لنا؟ يا عزيزي، يغفر الله ويعفو.. بالله وبالنبيّ يغفو عنك! يعني أنّ حالة من اليأس والقنوط قد سيطرت علينا إلى حدّ نرى في الواقع أنّ الله تعالى عاجز، غاية الأمر أنّنا ننسب ذلك إلينا!

فلا فرق عند الله تعالى بين أن يغفو عن ذنب واحد وبين أن يغفو عن ذنوب كثيرة؛ فعندما يريد أن يغفو، فإنه يقوم بذلك في لحظة واحدة وتنتهي المسألة! فسواء صدر منك ذنب واحد أو ذنوب كثيرة، فإنّ ذلك يُمحى في لحظة واحدة! وهذا نظير ما يحصل عندما تريد أن تمحّف شيئاً من جهاز الكمبيوتر، فبضغطة واحدة على الزرّ تمحّفه، سواءً كان مؤلّفاً من كلمة واحدة أو من ألف كلمة، ولا يتطلّب منك الأمر أن تمحّف واحدة بواحدة؛ فالله تعالى يضغط على الزرّ مرّة واحدة فقط، بغضّ النظر عن عدد الذنوب التي صدرت منك، وما عليك إلا أن تحسّن توبتك أنت، وتجعل منها توبة حقيقية ونحوها، وتكون لك إرادة حقيقية في عدم العودة [لاقتراف ذلك الذنب]، فيضغط الله تعالى على الزرّ مرّة واحدة، ليُمحى كلّ ذلك؛ وفي هذه الحالة، مهما فتّشت عن ذلك الذنب، فإنّك لا تجده، وتبدأ تتساءل مع نفسك: أهل ارتكبت هذا الذنب من الأساس؟! وقد حصل مثل هذا الأمر فعلاً.

بعض الإخوان - إن لم نقل أكثرهم -، عندما يعملون على تنفيذ تلك البرامج المرتبطة بالتبوية التي أمر بها العظام والأولياء والعرفاء، ويريدون توضيح تلك الأمور، يقولون: عندما أنظر إلى نفسي الآن، أرى أنني لم أذنب من الأساس، فما الذي حصل؟ فقبل العمل بذلك البرنامج وتنفيذ تلك الأوامر، كنت أقول مع نفسي: هل يعقل أن يغفو الله عني؟! أي أنني كنت يائساً كثيراً من رحمة الله تعالى، وأماماً الآن، فلا أرى أنني أذنبت أصلاً.. (أُولِئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ). ويبدو أننا تحدثنا عن هذا الأمر سابقاً، وبيننا كيف أن الله تعالى يقلب الذنب ويبدل إلى حسنة؛ فأحياناً، يستر الله تعالى الذنب ويعفو عنه، وهذا واضح، لكن أحياناً يبدل إلى حسنات، فهذا كيف يحصل؟ عجيب جداً! إذ كيف يتبدل الذنب إلى حسنة، وكيف يتبدل روح الذنب إلى نورانية؟ فهذا شيء عجيب! وهو بنفسه يحتاج إلى كلام مفصل، غير أننا لن نتعرض له الآن.

فكان أحدهم يقول: إنني لا أشعر في نفسي بأنني أذنبت من الأساس! ثم ظنَّ بعد ذلك أن هذا أمر سيءٌ، وأنه على الإنسان أن يشعر دائمًا بذنبه، فقلت له: لا يا عزيزي! لقد عفا الله عنك، فاذهب وامرح وارقص، فقد صرت مورداً لرحمة الله ومغفرته! لقد طهّرك الله تعالى، فلماذا تسعى وراء ذنوبك؟! لقد انتهى الأمر، وحذف ذلك من ذهنك!

هكذا هي المسألة، فعندما يريد الإنسان أن يرجع، وأن يتوب، ويقرر أن يغير برائحة، فإن الله تعالى يساعدك؛ فبمقدار ما تدفع مالاً، تأخذ طعاماً! لقد كان هذا المثل يجري دائمًا في ذهن المرحوم العلام وعلي لسانه، فكان يقول لنا دائمًا: بمقدار ما تدفع مالاً تأخذ طعاماً! فإن دفعت كثيراً، امتلاً ظرفك طعاماً، وإن أقللت، امتلاً نصفه؛ وهكذا!

سوء ظن الإنسان بالله مانع من سلوكه إليه

بناء على ذلك، نرى أن الإمام يعلّمنا ويبين لنا الطريق، ويقول: في علاقتك بالله، ليكن تعاملك معه على أساس الفضل، واعلم أن هذا الفضل سيأخذ بيده، فلا تيأس، ولا تكن سيء الظن به تعالى، وإلا فسوف يعيقك سوء الظن هذا عن الحركة! فلا تأتِ غداً وتعترض على الله

تعالى و تقول: إلهي، لم أستطع! فِيْقَال لَكَ: كَانَ بِإِمْكَانِكَ أَنْ تَكُونَ حَسَنَ الظَّنْ! "أَنَا عَنْدَ حَسَنَ الظَّنْ عَبْدِيُّ الْمُؤْمِنِ بِي"؛^١ أَيْ أَنَا أَنْظَرُ إِلَيْكَ عَبْدَهُ لَدِيهِ حَسَنَ ظَنٌّ بِي أَمْ لَا، فَإِنْ وَجَدْتُهُ لَا يُحْسِنُ الظَّنْ بِي، تَرَكْتَهُ! فِيمَا عَلَاقَتِي بِكَ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَدِيكَ حَسَنَ ظَنٌّ بِي، فَأَذَهَبَ! وَوَاقِعًا نَحْنُ كَذَلِكَ! فَمِنْ بَابِ الْمِثَالِ، إِذَا وَجَدْنَا شَخْصًا أَوْ رَفِيقًا لَدِيهِ سَوْءَ ظَنٌّ بِنَا، تَرَانَا نَقُولُ: دَعْهُ، فَلِمَاذَا عَلَيْنَا أَسْدِيَ هَذِهِ الْخَدْمَةِ لَهُ؟ وَأَمَّا إِذَا رَأَيْنَا أَنَّ رَفِيقًا لَدِيهِ حَسَنَ ظَنٌّ بِنَا، فَحَتَّى لَوْ لَمْ نَرْغَبْ فِي إِسْدَاءِ الْخَدْمَةِ لَهُ، تَجَدَّنَا نَقُولُ: بِمَا أَنَّهُ يُحْسِنَ الظَّنْ بِي، فَلَا يَذْهَبُ وَأَسْدِيَ لَهُ هَذِهِ الْخَدْمَةِ وَأَقْضِي لَهُ حَاجَتَهُ! هَكَذَا يَفْعُلُ اللَّهُ تَعَالَى أَيْضًا، فَنَحْنُ مُثْلُ اللَّهِ، وَنَمْتَلِكُ مُثْلَ هَذِهِ الْأَوْصَافِ!! وَلَهُذَا فَإِنَّا نَفْرَحُ بِحَسَنِ ظَنِّ النَّاسِ بِنَا؛ كَأَنْ يُقَالُ لَنَا: دَعْكَ مِنْ فَلَانَ، فَإِنَّهُ لَا يَهْتَمُ بِالْأَخْرَيْنِ، وَيَسْعَى وَرَاءِ عَمَلِهِ فَقَطْ! فَعِنْدَمَا يَرَى إِنْسَانٌ بِأَنَّ هَذَا الشَّخْصُ يَتَعَالَمُ مَعَهُ بِهَذِهِ الطَّرِيقَةِ، وَأَرَادَ أَنْ يُسْدِي لَهُ خَدْمَةً، تَجَدُّهُ يَقُولُ: حَسَنًا، غَايَةُ مَا يُمْكِنُنِي الْقِيَامُ بِهِ هُوَ أَنْ أَفْعُلَ لَهُ هَذِهِ الْأَمْرَ، وَأَمَّا أَنْ أَزِيدَ عَلَيْهِ، فَلَا! أَوْ يَقُولُ: دَعْكَ مِنْهُ، فَإِنَّهُ يَحْسِبُ نَفْسَهُ ذُو مَنْزَلَةِ عَالِيَّةٍ.. دَعْكَ مِنْهُ، فَإِنَّهُ يَفْعُلُ كَذَلِكَ! فَعِنْدَمَا يَشْعُرُ إِنْسَانٌ بِسَوْءَ ظَنٌّ أَتَّجَاهَهُ مِنْ طَرِفِ ذَلِكَ الشَّخْصِ، فَسُوفَ تَحْصُلُ لَهُ بِدُورِهِ مُثْلُ هَذِهِ الْحَالَةِ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِ، وَأَمَّا إِذَا شَعَرَ إِنْسَانٌ بِأَنَّ رَفِيقَهُ لَدِيهِ حَسَنَ ظَنٌّ بِهِ، وَتَعَالَمَهُ مَعَهُ هُوَ تَعَالَمَ أَخْرَى، وَتَعَلَّقُ خَاطِرُهُ بِهِ هُوَ تَعَلَّقُ مُخْتَلِفٌ، وَعَلَاقَتِهِ بِهِ هِيَ عَلَاقَةٌ مُخْتَلِفَةٌ، فَإِنَّهُ مِنْ نَفْسِهِ لَنْ يُسْتَطِعَ أَلَا يَأْخُذَ هَذِهِ الْمَسْأَلَةَ بَعْنِ الْأَعْتَابِ.

وَاللَّهُ كَذَلِكَ أَيْضًا، فَهُوَ يُرِيدُ أَنْ يَكُونَ لَدِي عَبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ حَسَنَ ظَنٌّ بِهِ! يَا عَزِيزِي: هُنَاكَ إِلَهٌ.. هُنَاكَ عَظِيمٌ وَهُنَاكَ حَقِيرٌ، هُنَاكَ سَيِّدٌ وَهُنَاكَ عَبْدٌ، وَلِكُلِّ شَيْءٍ حَسَابُهُ الْخَاصُّ.. يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: أَنْتَ لَدِيكَ حَسَنَ ظَنٌّ بِجَمِيعِ الْمَخْلُوقَاتِ، إِلَّا بِي أَنَا! وَأَنْتَ تَذَهَّبُ إِلَى أَلْفِ شَخْصٍ وَتَنْحِنِي أَمَامَهُمْ تَسْعِينَ دَرْجَةً، وَتَذَهَّبُ إِلَى هَذَا وَإِلَى ذَلِكَ، وَتَذَهَّبُ إِلَى مَخْلُوقَاتِي لِيُسَاعِدُوكَ فِي أَمْوَارِكَ؛ فَمَتَى تَذَكَّرُنِي إِذَا؟ وَمَتَى تَلْتَفَتَ وَتَتَوَجَّهُ إِلَيْيَ؟! وَمَتَى تَأْتِي إِلَيْيَ؟! أَلَا تَعْلَمُ أَنَّ كُلَّ أَثْرٍ يَتَرَشَّحُ مِنْهُمْ هُوَ عَبَارَةٌ عَنْ أَثْرِي أَنَا؟! أَلَا تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الَّذِي يَقُولُ لَكَ بِهَذَا

^١ [الكافي] عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ يَحْيَى عَنْ أَبِي عِيسَى عَنْ أَبِي بَزِيعٍ عَنِ الرَّضَا عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: أَحْسِنِ الظَّنَّ بِاللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ: أَنَا عِنْدَ حُسْنِ ظَنِّ عَبْدِيِّ الْمُؤْمِنِ بِي إِنْ خَيْرًا فَخَيْرًا وَإِنْ شَرًا فَشَرًا (بحار الأنوار، ج ٦٧، ص ٣٦٦). المترجم

العمل، أنا الذي ألقيت في روعه ذلك؟ ثم تغفل عنّي، وتقول: ذهبت إلى فلان، وإلى المكتب الغلاني وأنجز لي هذا العمل! حسناً يا عبد الله، لو لم يلقي الله في روعه القيام بهذا العمل، لما قام به! فقد كان بإمكانه أن يقول: اذهب وأغلق الباب! عندي جلسة! لا وقت لديّ! عندي اجتماع! تفضل بالذهاب الآن! ألا يقولون ذلك؟ يقولون! لقد تركت الأصل، وأتيت إلى أشخاص آخرين؛ فمَا يُسمّى هذا؟ يُسمّى سوء ظنّ.

حسناً، لقد ألمحنا إلى هذا المطلب في هذه الليلة، وسنعتمد - إن شاء الله - على إكماله في الليالي اللاحقة. وعلى كلّ حال، فإنّه مطلب مهمّ، ومع أنّا لم ننته بعد من الحديث عن مسألة الفضل لكي ننتقل إلى الفقرة التالية، لكنّ هذا ما حصل هذه الليلة، حيث جرى الكلام عن هذا المطلب.

تتجزّ السالك وتصديقه بمسيره يمحجزانه عن الاهتمام بالآخرين

إنّ هذا التجزّ أمر مهمّ، وذلك بأن يكون لدى الإنسان يقين بالمسير الذي يسير فيه، وبالمدرسة التي يتتمي إليها، وأن يكون لديه تصديق بأنّ الحقيقة هي في هذا المكان الذي يتواجد فيه؛ عندئذٍ، إذا كانت الحقيقة في هذا المكان، فلا ينبغي عليه أن يُغير سمعه إلى ماذا قال هذا وماذا قال ذاك ، وماذا هنا وماذا هناك؛ فجميع هذه الأمور تصير موانع وصوارف، بحيث تأتي هذه الصوارف وتقلّل من ذلك التجزّ وتبرّي ذلك اليقين وتكسره، فتعمل على خفض ذلك التجزّ الذي ينبغي أن يكون في الإنسان، وتلك الاستقامة التي يجب أن يتوفّر عليها، وذلك الفكر الذي ينبغي أن يكون متمحّضاً ومركّزاً على نقطة واحدة حتى يمكنه أن يجني استفادة أكثر؛ نعم، فالشياطين والأبالسة منتشرون بشكل كبير هنا وهناك، فيأتي أحدهم ويبعث الشكّ في الإنسان، ويأتي الآخر ويبعث الشكّ فيه، وهكذا إلى أن تتبّدّل المسألة شيئاً فشيئاً إلى هيئة،^١ وبعد ذلك في أمان الله! إنّ هذا كله بسبب أنّنا نفتقد للتجزّ، ولا تصديق لدينا، ولسنا ثابتين على

^١ المراد بالهيئات هنا هي تلك المؤسسات التي يُشكّلها بعض عوام الناس من أجل إقامة المناسبات المرتبطة بالمعصومين عليهم السلام؛ وقد أصبحت الكثير من هذه الهيئات تحصر اهتمامها بالأمور الظاهرية فقط، لتحول بذلك مراسم العزاء (وغيرها) إلى طقوس رتيبة قد تكتنفها في بعض الأحيان بعض مظاهر الابداع. المترجم

الطريق وعلى المبني والأصول؛ مع أنّ هذه الأمور - كما ذكرت لكم سابقاً - هي بآيدينا نحن، فالمبني بآيدينا والمسائل بآيدينا.

ففي أحد الأيام، كنت أتحدث عن أنّ أهم مبني هذا الطريق هو اهتمام الإنسان بعمله، دون النظر إلى أعمال الآخرين؛ فهذا من جملة المبني والدستورات الأخلاقية التي كان المرحوم العلّامة يؤكّد عليها كثيراً؛ أي أن تهتمّ بنفسك، من دون أن تكون لك علاقة بمن يأتي ومن لا يأتي! فإذا كنت قد اهتمت للحقّ، فخذه واعمل به وتقديم على أساسه، وأمّا أن تخوض في السؤال عن: لماذا أتي وجلس هناك؟ فلا علاقة لك به.. لماذا هذا جالس هنا؟ لا علاقة لك به! لماذا هذا أتي، وتحدّث مع السيد؟ فليفعل ذلك! لماذا السيد يضحك مع فلان؟ هو أراد أن يضحك معه؛ فهل هو بحاجة إلى أن يأخذ إجازتك ليضحك أو يبكي؟ إنّ هذه المسألة مهمة جداً، وهي موجودة دائماً، فمن أهمّ الأسباب التي جعلت ذاك الشخص - الذي ذكر المرحوم العلّامة اسمه في الروح المجرّد - ينفصل عن المرحوم الحداد هي أنه كان فضوليّاً، وقد كانت هذه المسألة أحد أهمّ الأسباب التي أحدثت تغييرًا وتبذلاً في ذلك الشخص، وأدّت إلى طرده من قبل السيد الحداد؛ وكان هذا الأمر مشهوداً. وأمّا المرحوم العلّامة، فلم تكن أية علاقة له بمن يجري؛ فكان البعض يأتي ويدّه، وكان بعض المخالفين يأتون إلى منزل السيد الحداد، كما كان يأتي أيضاً بعض الأشخاص الصالحين الذين لم يكونوا تلامذة له؛ فمن باب المثال، كان المرحوم السيد مصطفى الخميني ابن المرحوم آية الله الخميني رجلاً صالحًا وذا نفس طيبة وإنساناً واعياً، وكان فهيمًا وذا نفس صافية، وكان واصحاً أنه يسعى وراء الحقيقة؛ فكانت أراه مراراً، حيث كان يأتي أيام الجمعة من النجف، وكان يجلس متربعاً أمام السيد الحداد وكلّه سمع له، فكان يجلس يستمع إلى السيد الحداد لمدة ساعة، وإن كانت لديه أسئلة، كان يطرحها، فيجيب عنها السيد الحداد، ثم يودّعه ويدّه؛ لقد كان يأخذ نصيبيه منه ويدّه! رحمة الله عليه، فقد كان رجلاً صالحًا وكريم النفس، وإنساناً جاداً، وكان المرحوم السيد الحداد يحبّه أيضاً، وكان ذلك واصحاً من طريقة كلامه معه وعدم ردّه.

لقد كان يأتي الكثير من الأشخاص المخالفين والذين كانوا مختلفون معه، فلم يكن المرحوم العلامـة يتدخل في أي شيء، بينما كان ذاك الرجل يعتـرض ويقول: لماذا جاء هذا إلى المنزل؟ ما شأنك أنت بذلك؟! أو يقول: لماذا أتـى هذا ولمـاذا جاء ذاك؟ يا عزيـزي، هل أنت مـسؤـول مـكتـبه؟ هل أوكـلـ الأمـر إـلـيـكـ؟ لمـ يـكـنـ لـلـسـيـدـ الحـدـادـ المـسـكـيـنـ مـكـتبـ وـمـعـاـنـيـنـ حتـىـ يجعلـكـ مـسـؤـولـاـ؟ـ فـمـاـ هـيـ عـلـاقـتـكـ بـذـلـكـ؟ـ تـعـالـ ياـ عـزـيـزـيـ،ـ وـاسـتـفـدـ مـنـهـ،ـ وـاـذـهـبـ مـنـ دـوـنـ أـنـ تـتـدـخـلـ!ـ نـعـمـ،ـ إـنـ كـانـ نـصـيـبـكـ قـدـ قـلـ بـسـبـبـ ذـلـكـ،ـ فـهـذـاـ كـلـامـ آـخـرـ،ـ لـكـنـ الـمـفـرـوضـ أـنـكـ تـأـخـذـ نـصـيـبـكـ وـزـيـادـةـ،ـ إـلـىـ حـدـ الـإـفـاضـةـ عـنـ طـاقـتـكـ؛ـ فـإـذـاـ كـانـ ذـلـكـ الشـخـصـ يـرـيدـ الـمـجـيـءـ،ـ فـمـاـ عـلـاقـتـكـ أـنـتـ بـذـلـكـ؟ـ وـلـوـ أـرـادـ مـنـهـ الـمـرـحـومـ الـحـدـادـ أـلـاـ يـأـتـيـ،ـ لـقـالـ:ـ لـاـ تـدـعـوـهـ يـدـخـلـ!ـ قـدـ يـأـتـيـ يـوـمـ،ـ فـيـكـوـنـ هـذـاـ الـفـضـولـ سـبـبـاـ فـيـ سـقـوـطـ الـإـنـسـانـ!ـ يـاـ عـزـيـزـيـ،ـ أـدـ مـاـ عـلـيـكـ،ـ وـاـذـهـبـ لـحـالـ سـبـيـلـكـ!

لقد كنت أتحدث عن هذه المسـأـلةـ،ـ وـمـنـ جـمـلـةـ ذـلـكـ أـنـ بـعـضـ الـأـشـخـاصـ كـانـواـ هـنـاكـ،ـ وـكـنـتـ أـعـنـيـهـمـ بـكـلـامـيـ..ـ يـاـ عـزـيـزـيـ،ـ إـذـاـ كـنـتـ جـالـسـاـ فـيـ مـكـانـ مـاـ،ـ فـلـمـاـذـ تـنـظـرـ هـنـاكـ وـهـنـاكـ لـتـرـىـ ماـذـ يـجـرـيـ؟ـ بـلـ طـأـطـعـ رـأـسـكـ،ـ وـاـهـتـمـ بـنـفـسـكـ،ـ وـأـنـجـزـ مـاـ عـلـيـكـ فـعـلـهـ!

حـسـنـاـ،ـ فـمـاـ الـذـيـ سـيـحـصـلـ إـذـاـ لـمـ نـرـتـبـ الـأـثـرـ عـلـىـ هـذـهـ الـمـسـأـلةـ؟ـ سـتـبـقـيـ هـذـهـ الصـفـةـ فـيـ النـفـسـ إـلـىـ أـنـ نـدـخـلـ فـجـأـةـ فـيـ بـعـضـ الـمـسـائـلـ الـتـيـ تـوـجـبـ لـنـاـ الشـبـهـ وـالـإـسـكـالـ؛ـ فـفـيـ النـهـاـيـةـ،ـ سـوـفـ يـأـتـيـ يـوـمـ،ـ وـتـكـوـنـ هـذـهـ الصـفـةـ سـبـبـاـ فـيـ سـقـوـطـ الـإـنـسـانـ،ـ كـمـاـ سـبـبـتـ فـعـلـاـ فـيـ سـقـوـطـ الـبـعـضـ؛ـ فـعـنـدـمـاـ نـقـوـلـ بـأـنـهـ عـلـىـ الـإـنـسـانـ أـنـ يـتـشـبـثـ بـالـمـبـاـنـيـ،ـ فـالـنـفـعـ فـيـ ذـلـكـ إـنـهـ يـعـوـدـ عـلـىـ الـإـنـسـانـ نـفـسـهـ!ـ يـاـ عـزـيـزـيـ،ـ إـنـ أـحـدـ هـذـهـ الـمـبـاـنـيـ هـيـ أـنـ تـهـتـمـ بـعـمـلـكـ وـبـنـفـسـكـ،ـ فـإـنـ لـمـ تـصـنـعـ لـلـكـلـامـ،ـ سـوـفـ تـسـقـطـ،ـ وـإـنـ سـمـعـتـ الـكـلـامـ،ـ سـوـفـ تـتـقـدـمـ لـلـأـمـامـ!

لـقـدـ كـانـ الـمـرـحـومـ الـعـلـامـ عـلـىـ هـذـاـ النـحـوـ؛ـ فـعـنـدـمـاـ كـانـ يـسـمـعـ شـيـئـاـ مـنـ الـعـظـمـاءـ،ـ كـانـ يـذـهـبـ وـيـطـبـقـهـ عـلـىـ نـفـسـهـ،ـ وـكـنـاـ قـدـ ذـكـرـنـاـ قـبـلـ لـيـلـتـيـنـ بـأـنـهـ حـتـىـ حـيـنـاـ كـانـ أـسـاتـذـتـهـ يـتـحـدـثـوـنـ عـنـ شـخـصـ آـخـرـ غـيـرـهـ،ـ كـانـ يـقـوـلـ:ـ هـذـاـ الـمـطـلـبـ مـرـتـبـ بـيـ،ـ وـأـنـاـ الـمـعـنـيـ بـهـ،ـ وـعـلـيـ أـنـ أـعـمـلـ بـهـ.

نرجو من الله تعالى - إن شاء سبحانه - ألا يحرمنا نعمة فهم هذه المطالب وإدراكها، ويوفقاً شيئاً فشيئاً للوصول إلى هذه الحقائق التي بينها لنا هؤلاء العظماء والأولياء والعباد المختصين بحضرته من خلال هذه العبارات والمناجاة وهذه الأدعية وهذه المضامين.

وحقيقةً، إذا تدبر الإنسان في هذه الفقرات من دعاء أبي حمزة، فلن يعود بحاجة إلى أي شيء آخر، ولن يحتاج إلى أي دستور سلوكى آخر، وإلى أي كتاب آخر؛ فيكفى أن نأخذ دعاء أبي حمزة، ونقرأه، وندقق فيه، لنرى ما هو مراد الإمام من دعائه لله، ولا نقول بأنّ الأئمة قالوا لنا بأن نقرأ هذا الدعاء في ليالي شهر رمضان، لنحصل على ثواب ونسجل حضورنا فقط! كلاً، لقد ذكر الأئمة هذه المطالب لأجلنا نحن، ولأجل يومنا هذا، ولكي نأقى ونجلس سوياً ونرى ما الذي يمكننا فعله، ونتعرّف على أمراضنا، وما هو الدواء الذي ينفعنا، ولكي نمشي في الطريق الذي حددوه لنا، كما مشى الآخرون على هذا الطريق ووصلوا إلى مقصودهم!

والله وبالله وتأله، أنا أشهد بأنّ المرحوم العلامة الطهراني الذي تعرفونه والسيد هاشم الحداد الذي تعرفونه والسيد علي القاضي قد قرؤوا هذه الأدعية وعملوا بهذه المطالب، وكانوا يتحدثون في كلامهم بهذه الفقرات، وكانوا يعرضون نفس هذه المسائل والمضامين على رفقائهم، ويعملون هم بها؛ لهذا صاروا كذلك، فصار أحدهم السيد القاضي، والآخر السيد الحداد، والآخر العلامة الطهراني، والآخرون أيضاً يمكنهم أن يصيروا كذلك؛ فهذا هو الطريق، وعلى الإنسان ألا يضع رأسه تحت التراب، بل عليه أن يعمل بالشيء الذي فهمه، ويرتّب عليه الأثر.

نسأل الله تعالى أن يوفقاً للعمل بهذه المطالب والمضامين، وأن ينعم علينا ببركاته وألطافه الغيّبية.

اللهم صل على محمد وآل محمد